وفى مجال تعرية المنهجية الاستشراقية تساءل الفصل الثالث عن دلالة المعجزات على النبوات، بمعنى: إذا تحققت المعجزة على يد مدعى النبوة فهل ينهض هذا دليلاً على أنه مبعوث يوحى إليه ؟

فإذا دلت المعجزة على نبوة موسى وعيسى فكيف لا تدل على نبوة محمد وله من المعجزات ما لموسى وعيسى بل له ما هو أزيد و أوضح و أدوم ؟

جاء الفصل الرابع ليقيم الأدلة والبراهين على نبوة محمد «ﷺ» .

أما أوجه التشابه ، بل التطابق بين الوحى الإلهى إلى موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام فلا مرية فيه وإذا كان الدين واحداً لأنه صادر من مشكاة واحدة ، وإذا كانت صفات الوحى إلى محمد «ﷺ» هى نفسها إلى موسى وعيسى عليهما السلام ، فماذا يريد فلاسفة الاستشراق ؟

إن الادعاء سهل، ولاسيما مع الضغن . وعندما نتهم المستشرقين بالبعد عن الموضوعية فلأن كثيراً من دراساتهم للإسلام . ونبى الإسلام جاءت من خلال دراساتهم للإنجيل أو اللاهوت ، بل الواقع أن من هؤلاء المستشرقين من ينتظم باستمرار فى سلك هيئات دينية وكنسية . فضلاً عن وقوعهم فى التميز المقصود إلى درجة سوء النية الإرادية والأهداف غير المعلنة[1] .

ونحن لا نريد من المستشرق أن يكون مسلماً ـ إلا إذا انتهت به أبحاثه ودراساته إلى ذلك ـ يعتقد ما يعتقده المسلم ، ولكننا نقول : ليس من الصعب ـ بل هو من المنهج العلمى ـ أن يضع المستشرق مفهوم المسلم لدينه فى تعبير المسلم واصطلاحه ، وهو حين يفعل ذلك لن يكون أكثر اقتراباً من المنهج العلمى الموضوعى فحسب ، ولكنه سيجعل نفسه فى مركز أفضل لكى يدرك مكان نبوغ الإسلام بين أحداث التاريخ .

هذه مناقشة صريحة لشبهات بعض فلاسفة الاستشراق تناولها الفصل الخامس بمباحثه الخمسة .

وأخيراً لعل هذا البحث يكشف عن أهم أهداف فلسفة الاستشراق ، وهى «إبعاد سلطان الدين عن النفوس»[2] أما الوسيلة الفعالة إلى ذلك فهى التعليم حيث يقول «جب» : «والتعليم أكبر العوامل الصحيحة التى تعمل على

١ ـ د. حسن حنفى : مقدمة فى علم الاستغراب ص٣٢ الدار الفنية بمصر ١٤١١هـ ١٩٩١م.
٢ ـ هـ.أ. جب : وجهة الإسلام ترجمة د. محمد عبدالهادى أبوريده ص٢١٤ الطبعة الأولى القاهرة